محكم

الحاجة إلى الاختلاف في فكر محي الدين القليبي

علي بن مبارك

باحث تونسي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

الملخّص:

تثير مسألة الاختلاف في الثقافة الإسلامية عدّة إشكاليات، وتطرح مجموعة من المفارقات، إذ انحرف الفكر الدينيّ عن مساره، فأغلق باب الاجتهاد، وسادت ذهنية التقليد بالأخذ عن الرّجال دون حجّة من النصّ، وانغلقت كلّ جماعة مذهبية على نفسها زاعمة أنّها الفرقة النّاجية. أمّا بقية الفرق، فهي على ضلال، وظهر التعصّب المذهبيّ والغلوّ، وسادت ثقافة الإقصاء والنفي، وأصبح الحديث عن الاختلاف والتعدّد والتنوّع ضرباً من التمرّد على الفكر السّائد ومساساً بالدّين وتعاليمه. وقد أدركت جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية منذ ظهورها بالقاهرة سنة 1946 أنّ صلاح أمر المسلمين وجمع شملهم لا يتحقّق إلاّ إذا تجاوزنا خطاب الإقصاء والتكفير والتفسيق، وأعدنا الاعتبار إلى ثقافة الاختلاف؛ فالاختلاف سبيل التواصل بين الجماعات الإسلامية، وفي هذا الإطار يتنزّل فكر محي الدين القليبيّ، إذ تناول هذه المسألة بعمق في مقالات له نشرها بمجلّة "رسالة الإسلام"، فتحدّث عن مشروعية الاختلاف وأسبابه ومظاهره ودوره في ازدهار المسلمين وتطورهم.

تعتبر ثنائيّة الخلاف والاختلاف من الثنائيات الراسخة في الثقافة الإسلاميّة القديمة والمعاصرة، ولم يكن هذا المدخل حكراً على صنف من العلماء دون غيرهم، بل كان يستقطب اهتمام الفقهاء والأصوليين والمتكلّمين والمفسّرين والمحدّثين والمتصوّفة والفلاسفة وعلماء اللّغة، كما شغل في العصر الحديث علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والمستشارين النفسيين والمهتمين بالشؤون السياسيّة والعلاقات الدولية والقضايا الثقافيّة، ولو حاولنا ضبط دلالات الخلاف أو الاختلاف من منظور هذه العلوم المختلفة في تطوّرها التاريخيّ لجمعنا مدوّنة كبيرة ومتنوّعة، ولئن اقترن الخلاف بالتعصّب والصراع والسباب ونفي الآخر، فإنّ الاختلاف تعلّق بالتعدّد والتنوّع والاعتراف بالمخالف، ولقد ميّز المسلمون زمن ظهور المدارس الفقهية والأصولية الكبرى بين الخلاف في الأصول والاختلاف في الفروع، وآية ذلك أنّ أصول الدين واضحة، فلا اختلاف بين المسلمين حول قدسيّة المتعالي والتوحيد والنبوّة والمعاد وغيرها من الأصول العقديّة والمقاصد الشرعيّة. أمّا الاختلاف في فروع الدين بما هي أحكام فقهية وتشريعات فهو اختلاف محمود، بل ضروريّ في بناء العمران البشري، إذ الاختلاف من هذا المنظور رحمة ودليل على سلامة الدّين ونجاعة تواصله مع التاريخ.

وانخرطت جدليّة الخلاف والاختلاف في مسارات الثقافة الإسلاميّة الكبرى، فبعد غلق باب الاجتهاد ودخول الثّقافة الإسلامية في غياهب الاتبّاع وظلمات التقليد، أصبح الحديث عن الاختلاف والتعدّد والقبول بالمخالف من الأمور المذمومّة التي تلحق الأذى بصاحبها، وكم من مجتهد سجن وشرّد وقتل، لأنّه قال بمشروعية الاختلاف وحقّ التعدّد المذهبيّ والدينيّ! ونلاحظ من خلال مراجعة كتب الخلاف التي سادت في العصور الوسطى، ومازالت تؤثّر في المسلمين اليوم، أنّ هاجس الخوف من الاختلاف كان هاجساً محورياً، لذلك كثر الحديث عن الاختلاف المذموم والممنوع والمنبوذ، وساير التعريف اللّغوي المسار الثقافيّ الذي انتهجه مدخل "الاختلاف"، فأكّد المعجم العربيّ أنّ "الخلاف المخالفة"[1]، ويبطن هذا التعريف صراعاً خفيّاً وتنازعاً بين طرفين خالف أحدهما الآخر على سبيل التعارض والتقابل، وهذا يعني أنّ "الخلاف المضادة"[2]، و"تخالف الأمران واختلفا: لم يتّفقا، وكلّ ما لم يتساو فقد تخالف واختلف"[3]، ونلاحظ أنّ مفهوم الخلاف اقترن بالقطيعة بين أطرافه والتضارب بين الأقوال والتنافس على تمثيل الحقيقة المطلقة، فكلّ طرف من أطراف الخلاف يعتقد أنّ الحقيقة واحدة وشاملة لا تتجزّأ يملكها طرف واحد وعلى بقية الأطراف الإذعان والتسليم، وعدم التسليم دليل على التعنّت والتكبّر والفسق والكفر، فالحقّ بيّن وكلّ خلاف حول ما اعتبره بعضهم حقيقة

[1]- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، **لسان اللسان: تهذيب لسان العرب**، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993، ج1، ص 360
[2]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 361
[3]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 361

يعتبر مذمّة ومنقصة، وعلى هذا الأساس أصبح كلّ اختلاف خلافاً، وتمّ التماثل القسريّ بين المصطلحين، فأصبح كلّ حديث عن الاختلاف حديثاً عن الخلاف ومساساً بالدّين ورجاله.

وعلى الرغم من اعتراف القرآن بشرعيّة الاختلاف[4] وأهمّيته في بناء الحضارات، فإنّ ثقافة التقليد جعلت منه عدوّاً أزليّاً، ومصدر خوف دائم يستحسن الحذر منه والتعامل معه بريبة، والطريف أنّ المعجم العربيّ لم يكتف بمسايرة الثقافة الإسلاميّة في إقصاء الاختلاف، بل شيّد شبكة من المعاني السلبية اقترنت بمشتقات "الخلاف"، إذ "خلف له بالسيف إذا جاءه من خلفه فضرب عنقه"[5] و"الخالفة: الأحمق القليل العقل... وامرأة خالفة وخلفاء وخلفة وخلف: وهي الحمقاء"[6]، و"الخلْف والخُلْف: نقيض الوفاء بالوعد... وهو في المستقبل كالكذب في الماضي... ورجل مخلف أيّ كثير الإخلاف لوعده"[7] و"رجل مخالف لا يكاد يوفي".[8]

لقد حاول عدد كبير من المجتهدين والمفكّرين[9] المسلمين تصحيح المسار وتحرير الفكر الدّينيّ ممّا علق به من انزياحات وتشويهات، فتحدّثوا عن حتميّة الاختلاف، باعتبار أنّ "الاختلاف بين أفراد البشر ليس أمراً عرضيّاً وقشريّاً زائداً، بل هو من لوازم الحياة الجمعية للبشر ومقتضى بناء الإنسان الذهنيّ وكيفيّة إدراكه للأمور"[10]، ويبنى هذا التصوّر على أساس أنّ الحقيقة المطلقة –كما جاءت في القرآن- لا يعلمها إلاّ الله، وعلى الإنسان أن يجتهد في تمثّل هذه الحقيقة بحسب وضعه التاريخي وسياقه الثقافي ولا يقدر على حسم هذه الاختلافات غير الله، فهو فقط من يحكم بين المختلفين من بعد اختلافهم.[11] وأكّد القرآن في أكثر من موضع

---

[4]- يعتبر القرآن الاختلاف حقيقة إنسانية وحاجة طبيعية لا يمكن قمعها، وعلى هذا الأساس خلق الله البشر في ألسن وثقافات وجنسيات مختلفة وفي هذا الإطار يمكن لنا أن نفهم - على سبيل التأويل - دعوة القرآن "يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات /13)، واعتبر القرآن الاختلاف آية من آيات الخالق، فجاء فيه ما يؤكّد ذلك " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" (الروم / 22)، لا مبرّر أن نرفض حق الاختلاف وأن نصرّ على امتلاك الحقيقة الدينية دون غيرنا من المنظومات والمقاربات. "وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود/118)، ولذلك خلقهم الله متباينين في رؤاهم وتصوّراتهم، وهو ما يجسّده نصّ الآية التالية " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَىٰ الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ". (المائدة / 48)

[5]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 361

[6]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 362

[7]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 362

[8]- ابن منظور، المصدر نفسه، ج1، ص 362

[9]- يمكن أن نحيل في هذا الإطار على الشاطبي في كتابه "الموافقات"، حيث خصّص المسألة 11 "في بيان أسباب الخلاف بين حملة الشريعة" والمسألة 12 "من الخلاف ما لا يعدّ في الحقيقة خلافاً بل يرجع إلى الوفاق لأسباب" وتناول فيها خاصّة "ما كان ظاهره الخلاف وليس في الحقيقة كذلك"، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشّاطبيّ، الموافقات، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دت.

[10]- عبد الكريم سروش، السياسة والتديّن: دقائق ومآزق عمليّة، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2009، ص 244، ترجمة: أحمد القبانجي.

[11]- وهذا ما تؤكّده الآيات التالية

- آل عمران: 55 "ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

- المائدة: 48 "إِلَىٰ الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

- الأنعام: 164 "ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

- الحجّ: 69 "ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

أهمية تطهّر المسلم من عقدة الاستعلاء الدينيّ ومن وهم امتلاك الحقيقة المطلقة دون غيره، فالحقيقة لها عدّة وجوه، وكلّها تعكس رحمة الله ولطفه، وهذا المعنى تؤكّده الآية التالية: **"قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"**.[12]

لقد أرسى النصّ القرآنيّ مشروعاً ثقافيّاً إنسانيّاً يؤسّس للاختلاف من أجل التقدّم والرقيّ، إذ لا إبداع دون شيوع ثقافة تقوم على التعدّد والاختلاف واحترام آراء الآخر ومواقفه؛ فالاعتراف بالاختلاف يحقق التواصل البنّاء بين المجموعات الدينيّة والمذهبية والإثنية والسياسية، ويسّر سبيل التعايش المشترك والتعاون، وما أحوجنا اليوم بعد نجاح الثورات العربيّة وتقارب الهموم والأحلام إلى ثقافة اختلاف متينة تنبذ التعصّب والسّجال العقيم وتدفع إلى البناء والإبداع!

ولا نبالغ إذا قلنا إنّ ظاهرة الاختلاف ارتبطت في الحضارة الإسلامية بتأويل القرآن في المقام الأوّل؛[13] فكلّ مجموعة دينيّة فهمت النصّ فهماً مخصوصاً ثمّ توهّمت وأوهمت غيرها بأنّ تفسيرها للقرآن هو الصواب مطلقاً لا يقبل الخلاف أو الاختلاف، ولكنّ كلّ تأويل مشروع، ومردّ ذلك أنّ: "جماع الاختلاف والتناقض هو أنّ كلّ كلام صحّ أن يُضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض..."[14]، ولقد اختلف المسلمون في أسباب النزول والمحكم والمتشابه "ولا سيّما أنّ النّاس قد اختلفوا فيهما كاختلافهم في المذاهب، فالمحكم عند السنيّ متشابه عند القدريّ..."[15]، ويمكن أن نستدلّ في هذا الإطار ببدر الدين الزركشي، إذ أكّد في مواضع متعدّدة من كتابه "البرهان في علوم القرآن" قابلية القرآن - إذا استثنينا آيات الأحكام – لمختلف التفاسير والتأويلات، فنجده يقرّ منذ مقدّمة كتابه على لسان سهل بن عبد الله أن "لا نهاية لفهم القرآن"[16] إذ في عملية تفسير القرآن "تتفاوت الأذهان وتتسابق في النّظر إليه مسابقة الرّهان".[17] وهذا يتماشى مع قول السّلف (والعبارة للزركشي): "لكلّ كلمة ظاهر وباطن وهذا ما لا يُحصى ولا يعلمه إلاّ الله.."[18] وبُني هذا التصوّر على استحضار حديث نبويّ تناقلته أغلب كتب علوم القرآن بكلّ توجّهاتها، ومفاده: "أنّ لكلّ آية ظاهراً وباطناً

---

[12]- سبأ / 24

[13]- هذا ما نلحظه بجلاء عندما ندرس الاختلاف بين السُنّة والشيعة، إذ أنّ الخلاف بينهما لم يكن في الحقيقة غير اختلاف في تأويل معاني القرآن، وفي هذا السياق يمكن الاطلاع على:

* علي الأمين، السنة والشيعة أمّة واحدة؛ إسلام واحد واجتهادات متعددة، دراسة فقهية وكلامية في مسألة الخلافة والإمامة تسقط أسباب الخلاف وتثبت حق الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2011

[14]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، (منشورات محمد علي بيضون)، ج2، ص 55

[15]- الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 87 (النوع 36: معرفة المحكم من المتشابه)

[16]- الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 30

[17]- الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 36

[18] - الزركشي، المصدر نفسه، ج1، ص 37

ولكلّ حرف حدّاً ومطلعاً"، وهذا التصوّر يؤكّد أنّ ادّعاء امتلاك دلالات القرآن القطعية التي لا تقبل أيّ تشكيك ضرب من التعسّف على النصّ والواقع، فمعاني القرآن متطوّرة بتطوّر الزمن وبتغيّر البيئات لذلك "قال بعض أهل الذوق: القرآن نزول وتنزّل، فالنزول قد مضى والتنزّل باق إلى قيام السّاعة".[19] ومن هنا نفهم دعوة ابن عبّاس، وهو الأعرف بالقرآن حسب القدامى: "من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن".[20] هذا يعني أنّ القرآن من حيث هو معنى يمثّل مشروعاً منفتحاً على الزّمان تتغيّر معانيه بتغيّر ظروف القراءة وطبيعة القارئين لذلك "قال بعض العلماء لكلّ آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر"[21]، ولم يكتف صاحب البرهان بسرد أقوال العلماء المنتخبين، بل نجده يعلّق على حديث أبي الدرداء[22] قائلاً: "أيّ اللفظ الواحد يحتمل معاني متعدّدة ولا يقتصر به على ذلك المعنى، بل يعلم أنّه يصلح لهذا ولهذا."[23] ومن هنا ـ وكما يقول صاحب البرهان ـ: "اختلف الصّحابة في معنى الآية فأخذ كلّ واحد برأيه على مقتضى نظره في المقتضى."[24]

ونفهم ممّا سبق أنّ النصّ القرآنيّ عمل جاهداً على بناء ثقافة الاختلاف داخل النّسق الإسلاميّ الواحد، هذا الطّرح القرآنيّ يُجنّب المسلمين الوقوع في صدام وتناحر وتقاتل بسبب التعصّب للتأويلات، وكم من حروب نشبت بين المسلمين بسبب خلاف في فهم النصّ الدينيّ أو تأويل آي القرآن![25]، وقد تنبّه المصلحون المسلمون في العصر الحديث إلى مخاطر هيمنة عقلية الخلاف وخطاب الإقصاء والنفي، ووجدت كلّ محاولات التقريب بين المسلمين صعوبة مأتاها اعتقاد أغلب المسلمين بأنّ ما اكتسبوه من معارف دينيّة وحقائق تأويليّة هو عين الحقيقة لا يمكن التشكيك فيها أو مراجعتها، ولم يستطع روّاد التقريب بين المذاهب الإسلامية تجاوز هذا العائق بيسر بل فشلوا أحياناً في تذليل صعوباته، ونرصد معالم هذه الأزمة فيما كتبه أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة بالقاهرة[26] في مجلّتهم لسان حالهم "رسالة الإسلام"، فأغلب مقالات هذه المجلّة انتبهت إلى

---

[19]ـ الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 178

[20]ـ الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 171

[21]ـ الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 171

[22]ـ ونصّ الحديث: "أُنزل القرآن على سبعة أحرف لكلّ آية منه ظهر وبطن"

[23]ـ الزركشي، المصدر نفسه، ج2، ص 226

[24]ـ الزركشي، المصدر نفسه، ج2 ص 178

[25]ـ نذكر على سبيل المثال الخلاف بين علي بن أبي طالب والخارجين عنه، إذ كفّرت المحكّمة الأولى عليّاً لثلاثة أسباب:

ـ لأنّه أباح النظر في استقامة عثمان وظلم قتلته

ـ لأنّه توقّف عن قتال معاوية: الفئة الباغية

ـ لأنّه أباح في جموع الجمل أخذ المال دون السبي

ولعلّ ما يؤكّد ما ذهبنا إليه ما أورده الطبري من كلام لمصعر بن فتكي وزيد بن قصين الطائي (من أعضاء المحكّمة) وجّهاه إلى علي بن أبي طالب جاء فيه "يا علي أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذا دعيت إليه وإلاّ ندفعك برمتك إلى القول أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفّان"، محمّد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، بيت الأفكار الدوليّة، عمّان، دت، فصل: اعتزال الخوارج عليّاً وأصحابه ورجوعهم بعد ذلك، تحقيق: أبو صعيب الكرمي، ج1، ص 2914

[26]ـ تأسست جماعة التقريب بين المذاهب في أربعينيات القرن العشرين في القاهرة، وترأسها محمد علي علوبة باشا، وتولى الأمانة العامة فيها السيد محمد تقي الدين القمي وأصدرت مجلّة "رسالة الإسلام"، تولّى رئاسة تحريرها محمد محمد مدني.

أهمية مسألة الاختلاف، لكنّها ظلّت في عمومها سجينة نمطين من الاختلاف: المحمود والمذموم، وفي هذا السياق الثقافيّ الأدبيّ المخصوص ساهم محي الدين القليبيّ بمجموعة من المقالات نشرها بمجلة رسالة الإسلام، وأظهر فيها من التجديد والجرأة ما يشدّ الانتباه ويدعو إلى البحث والدرس.

1- محي الدين القليبي[27] الرائد المجهول

عُرف محي الدين القليبي باعتباره زعيماً وطنياً وقيادياً في الحزب الحرّ الدستوري القديم[28] ومقاوماً ضدّ الاستعمار داخل البلاد وخارجها، وكان يكتب مجموعة من المقالات الوطنية التحريضية ضدّ الاستعمار الفرنسي في عدّة صحف تونسية[29] ممّا تسبب له في مضايقات ونفي[30]، ويبدو أنّ محي الدين القليبي كان خطيباً مثقّفاً ممّا هيّأه لتقديم مجموعة من المحاضرات في الخلدونية تتعلّق بالحركة الوطنية وبعض قضايا العالم الإسلامي، كما ساعد ذلك على التعريف بالقضية الوطنية وكسب الأنصار لها عند سفره إلى المشرق.

والمرجّح أنّ اتصاله بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية كان بعد زيارته الثانية إلى المشرق سنة 1949، وهي السنة نفسها التي صدر فيها العدد الأوّل من مجلة رسالة التقريب، ولكن لا نستبعد أن يكون القليبي قد تعرّف على هذه الجماعة في بدايات تأسيسها عند زيارته الأولى لمصر سنة 1947 واستقراره بالقاهرة للتعريف بالقضية الوطنية، إذ في هذه السنة نفسها تأسست دار التقريب وشرعت في تنظيم برامجها وضبط أنشطتها.

وعلى الرغم من أنّ محي الدين القليبي كان شخصية ريادية في حركة التحرير الوطني وفي أدبيات التقريب بين المذاهب الإسلامية، ولكنّه لم يلق اهتماماً ممّن أرّخوا لتراجم التونسيّين ولتجارب التقريب وروّاده. وكم كان استغرابنا شديداً عندما تصفحنا كتباً تهتمّ بترجمة أعلام تونس[31] فوجدناها خالية من الحديث عن محي

---

[27]- ولد محي الدين بن محمد بن عبد القادر القليبي حوالي سنة 1900 أو 1901 وتوفي في 1 دجنبر 1954 بدمشق ونقل رفاته إلى تونس في 8 أبريل 1967، التحق بالزيتونة ولكنه انقطع عند وصوله إلى سنة "التطويع" عن الدراسة، وانضم إلى العمل الوطني والإصلاحي، سافر إلى المشرق مرتين، الأولى سنة 1947 استقرّ بالقاهرة، حيث اكترى بيتاً أسماه "بيت تونس"، ثمّ بعد عودته سنة 1948 إلى تونس سافر ثانية إلى المشرق سنة 1949 واستقرّ بدمشق، حيث أسس هناك أيضاً "بيت تونس"، كما أسّس دار الفكر الإسلامي للترجمة والنشر.

[28]- الحزب الحرّ الدستوري التونسي هو أول حزب وطني يتأسس بالبلاد التونسية، وكان ذلك في شهر مارس/آذار 1920 ، وقد أصبح يعرف بعد سنة 1934بالحزب الدستوري القديم مقابل الحزب الحر الدستوري الجديد الذي أسسه الحبيب بورقيبة وعدد من زملائه في 2 مارس من تلك السنة. يعتبر الحزب الحر الدستوري التونسي تطوراً لحركة الشباب التونسي التي نشطت، ثم قمعت قبيل الحرب العالمية الأولى. وبعد تلك الحرب ساهمت جملة من العوامل الداخلية والخارجية في ظهوره من بينها على مستوى عالمي الإعلان عن مبادئ الرئيس الأمريكي ولسن الداعية إلى تحرير الشعوب وحقها في تحرير مصيرها بالإضافة إلى تنامي حركات التحرّر في العالم. كما سمحت فترة ما بعد الحرب، للوطنيين التونسيين بالتحرك والتقدم بعدد من المطالب الوطنية. وقد التفت المجموعة حول كتاب تونس الشهيدة الذي صدر آنذاك بباريس بإمضاء الشيخ عبد العزيز الثعالبي. والمؤسسون هم بالإضافة إلى الشيخ الثعالبي: صالح فرحات ومحي الدين القليبي وأحمد توفيق المدني وأحمد الصافي وأحمد السقا وعلي كاهية وحمودة المنستيري والحبيب زويتن.

[29]- من قبيل "لسان الشعب" و"المشير" و"النديم" و"العصر" و"مرشد الأمة" و"الجديد" و"الصواب" و"الإرادة" و"الزهرة" التي ترأس تحريرها لفترة من الزمن.

[30]- نفي سنة 1934 إلى برج البوف (**برج الخضراء بعد الاستقلال**) مع الحبيب بورقيبة.

[31]- من ذلك على سبيل الذكر:

الدين القليبي! ولقد سررنا عندما عثرنا على كتاب ألّفه ابن محي الدين القليبي تحت عنوان "محي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن"[32] ولكنّنا لم نجد من بين الوثائق المعروضة في الكتاب ما يشير إلى مقالاته المنشورة في "رسالة التقريب" أو علاقته مع رواد التقريب باستثناء صورة[33]جمعته مع محمّد محمّد مدني رئيس تحرير المجلة وأحد الأعضاء الناشطين في جماعة التقريب. وجدير بالذّكر أنّ محي الدين القليبي تفرّد بكتاباته في مجلة "رسالة الإسلام" لا على مستوى البلاد التونسية فحسب، بل كذلك على المستوى المغاربي، ولو استثنينا مساهمة محمد الخضر حسين البسيطة في إنجاز معجم ألفاظ القرآن الكريم [34]، فإننا لا نجد في المغرب العربي من ساهم في تحرير هذه المجلّة وشارك في تخريج عددها الأوّل التأسيسي غير "محي الدين القليبي".

لقد اعتبرنا محي الدين القليبي رائداً مجهولاً ومغموراً من روّاد التقريب، كادت صورته في هذا المجال تختفي حتّى عند أقرب الناس إليه، ولذلك حاولنا في هذا المقال أنّ نعرّف بالقليبي مساهماً في بلورة فكر تقريبيّ، حاول في ذلك العصر كسر حواجز معرفية وتاريخية ونفسية لم يكن من الهيّن كسرها، وعمل قصارى جهده على ترسيخ منظومة فكرية سياسيّة تقوم على الاختلاف والتعدّد، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ محي الدّين القليبي كان متميّزاً في طرحه التقريبي مقارنة بمن شاركه الكتابة في مجلّة "رسالة الإسلام".

وسنحاول أن نستثمر في هذا العمل أربع مقالات كتبها القليبي، ونشرها في أعداد مختلفة من مجلة "رسالة التقريب"، وهذه المقالات نذكرها بحسب تاريخ صدورها كالتالي:

* المغرب الإسلامي[35]
* تاريخ المذاهب الإسلامية وشمال أفريقيا[36]
* الرباط في سبيل الله[37]
* أدب الدعوة إلى الحق[38]

- كتاب "أعلام تونسيون" للصادق الزمرلي، دار الغرب الإسلامي، 1986، وقدم له حمادي الساحلي.
- كتاب "شخصيات تونسية" لأحمد الطويلي، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم 2004، تونس.

[32]- عبد القادر القليبي، **محي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن**، مجموعة وثائق انتقاها وأعدها للنشر عبد القادر القليبي، مع تمهيد بقلم الشاذلي القليبي، دار سيراس، 2004

[33]- انظر الصّورة ص 374 من الكتاب المذكور سابقاً.

[34]- **معجم ألفاظ القرآن الكريم** (من بحوث مجمع فؤاد الأول للغة العربية)، ألفه بالاشتراك مع عبد المنعم خلاف، **رسالة الإسلام**، الطبعة الثانية، نشرها كلّ من مجمع البحوث الإسلامية بالآستانة الرضوية المقدسة، ومجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، 1999،السنة 4، عدد4/16، أكتوبر 1952، محرم 1372هـ.

[35]- رسالة الإسلام، السنة 1، عدد1، يناير 1949، ربيع الأوّل 1368، الطبعة الثانية، نشرها كلّ من مجمع البحوث الإسلامية بالآستانة الرضوية المقدسة، ومجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، 1999

[36]- رسالة الإسلام، السنة 4، عدد 14/2، أبريل 1952، رجب 1371 هـ.

[37]- رسالة الإسلام، السنة 4، عدد15/3، يوليو 1952، شوال 1371 هـ.

[38]- رسالة الإسلام، السنة 5، عدد1/ 17، يناير 1953، ربيع الأول 1372 هـ.

وسنحاول أن نتناول فكر القليبي التقريبي من خلال مدخلين: مدخل تفصيلي سنعتمد فيه الإيجاز، ونعرّف من خلاله بأهمية كلّ مقال على حِدَة، ومدخل تأليفي سنتناول فيه أهمّ القضايا المطروحة في هذه المقالات المتعلّقة بثنائيّة الخلاف والاختلاف ودورها في توجيه الخطاب التقريبي بصفة عامة.

2- محي الدين القليبي من خلال مقالاته

أ- "المغرب الإسلامي"

يُعدُّ العدد الأوّل من "رسالة الإسلام" عدداً تأسيسياً سيؤثّر لاحقاً في فكر جماعة التقريب ومنهجهم في العمل، كما سيحدّد طبيعة الجهاز الاصطلاحي الذي سيستعمل من قبل رواد التقريب الأوائل أو من تبعهم إلى يومنا هذا، إذ ظلّت التجارب التقريبية اللاحقة مشدودة إلى النموذج التأسيسي الأوّل، وفي هذا الإطار تتنزّل أهمية هذا المقال الذي اختار له عنوان "المغرب الإسلامي"، وهو عنوان مقصود حقّ القصد ويضطلع بعدة مهام من قبيل التذكير بهذا الجزء من العالم الإسلامي الذي مازال يعاني من ويلات الاستعمار، وأنّه مازال متشبّثاً بثقافة إسلامية حاول المستعمِر طمسها دون جدوى. كما يحيل العنوان على المغرب العربي باعتباره نموذجاً للوحدة والتعاون، حتى أنّ "الحدود التي أقيمت منذ السيطرة العثمانية عليه بين أجزائه (ليبيا، تونس، الجزائر، مرّاكش) لم تحل دون تأثر كلّ قطر من هذه الأقطار بما يحدث في القطر الآخر"[39]

ب- "تاريخ المذاهب الإسلامية وشمال أفريقا"

نشر هذا العدد بعد ثلاث سنوات من صدور العدد الأول من "رسالة الإسلام"، ويبدو أنّ محي الدين القليبي كان مشغولاً في هذه السنوات الثلاث بالقضية الوطنية وبالتعريف بها، خاصّة بعدما أسس "دار تونس" بدمشق واستقرّ هناك، ولقد أكّد صاحب هذا المقال أنّ شمال إفريقيا بصفة عامة وتونس بصفة أخصّ كان – وما زال- فضاءً للتعدد والتنوع والاختلاف والتعايش المذهبي البنّاء.

ج- أدب الدعوة إلى الحق

تزامن صدور هذا المقال مع ثورة يوليو 1952، ولذلك نجده يتضمّن تعديلاً خطيراً لصورة الصوفيّ؛ فقد جعل منه صاحب مرابطة وبأس ومقاومة للعدوان، ممّا يعني أنّ للمتصوفة قسطهم من التغيير الحضاري والفعل في التاريخ، ولكنّ الفقهاء شوّهوا صورتهم وزيّفوا حقيقتهم.

[39]- **رسالة الإسلام**، السنة 1، عدد1، يناير 1949، ربيع الأوّل 1368، ص 83

د- الرباط في سبيل الله

يتمحور موضوع هذا المقال أساساً حول مسألة اختلاف المسلمين، ولقد حاول صاحبه ضبط الأسباب الأساسية في فرقة المسلمين وتشتتهم، ودعا إلى تجاوز الأزمة من خلال التعليم على الاختلاف وإصلاح المدارس الدينية.

3- الخلاف والاختلاف في فكر محي الدّين القليبيّ

إنّ المدقّق في نصوص محي الدين القليبي المنشورة بمجلة "رسالة الإسلام"، يلاحظ أنّ الخيط الواصل بينها يتعلّق بمسألة الاختلاف بين المسلمين، وهي مسألة خطيرة شغلت كلّ روّاد التقريب وحاولوا مقاربتها من وجوه مختلفة، وفي هذا الإطار تناول القليبي مشغل الخلاف أو الاختلاف[40] من خلال أربعة مداخل يمكن ضبطها كالتالي:

أ- تحديد طبيعة الخلاف وأنواعه

لقد أدرك القليبي ضرورة ضبط المصطلحات لكي يتضح المقصود من الكلام، فتساءل عن مفهوم المذهب وعمّا يميّزه عن الفرقة، إذ "اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على المختلفين في الأصول فرقاً، وعلى المختلفين في الفروع (العبادات والأحوال الشخصية) مذاهب"[41]، وكأنّه بذلك أراد أن ينبّه إلى ضرورة التمييز بين الأصول والفروع وتقديم الفروع على الأصول. ولئن تعلّقت الخلافات بمسائل دينية حقيقية فإنّها سياسية بالأساس، إذ "افترق المسلمون في فجر تاريخهم، واكتووا بنار تلك الفتنة. افترقوا في السياسة، واختلفوا في نظام الحكم، ولكن لارتباط السياسة بالدين، انتقل الخلاف من نظام الدولة إلى العقيدة"[42]. ولو تتبعنا التاريخ الإسلامي منذ بداياته للاحظنا هيمنة البعد السياسي على خلافات المسلمين، وآية ذلك أنّه "لم يكن النزاع الأول الذي حدث بين المسلمين في فجر التاريخ الإسلامي ـ حسبما يبدو لي في حقيقته ـ إلاّ نزاعاً سياسياً يتعلق بنظام الدولة: نوع الحكومة، وشخصية الحكام، وأسلوب الحكم، وسياسة المحكومين".[43] وما أشبه الماضي بالحاضر! فـ"إنّ المسلمين فقدوا الدولة التي اختلفوا على نظامها، والسلطان الذي تنازعوا عليه، وضعف الدّين الذي نقلوا إليه الخلاف وتفرقوا فيه، وأخيراً فقدوا وجودهم وتخطفهم الناس".[44]

---

[40]- ورد استعمال اللفظين عنده في أغلب الأحيان بالمعنى نفسه.

[41]- **رسالة الإسلام**، السنة 4، عدد 14/2، ص 199

[42]- **رسالة الإسلام**، السنة 5، عدد1/ 17، يناير 1953، ربيع الأول 1372هـ، ص 88

[43]- **رسالة الإسلام**، السنة 4، عدد 14/2، ص 198

[44]- **رسالة الإسلام**، السنة 5، عدد1/ 17، ص ص 89-90

يبدو من خلال حديث القليبيّ أنّ البعد الدينيّ المذهبيّ للخلاف لم يكن في تاريخنا الإسلاميّ إلاّ واجهة تخفي أبعاداً أخرى خطيرة تتعلّق أساساً بهيمنة الفقهاء واستبداد الساسة وتجبّرهم؛ فالحديث عن تداخل بين الأصول والفروع يعني أساساً هيمنة الفقه باعتباره علم الفروع على بقية المعارف والأصول، وأصبح الاهتمام بفروع الدين والأحكام الفقهية - في عصر التقليد- حديث العامّة والخاصّة، فعامّة الناس يهتمّون بفروع الدين وفروع فروعه، ويركّزون على البعد الحسّي المادّي دون تدبّر الأبعاد الروحية المعرفية العميقة للأحكام، وهذا يعني "أنّ الطبع العاميّ نازع إلى المحسوس نافر عن المعقول الذي لا يعقله إلاّ العالمون الموصوفون في كلّ زمان بالقلّة"[45]، وساير بعض علماء الدّين العامّة فصنّفوا في الفروع وتفاصيل الأحكام ودوّنوا عشرات المجلّات في مسائل جزئيّة لا تستحقّ إلاّ صفحات معدودات. لقد كرّس علم الفروع هيمنة الفقهاء على الثقافة الإسلاميّة، وعمّق تعصّب المقلّدين للمذاهب الفقهية الخلاف والصراع بين المسلمين، وأصبح كلّ طرف يعتقد أنّ فروع الدّين التي يعتمدها في العبادات والمعاملات حقائق ربّانيّة لا تقبل الشكّ، وكلّ من خالفها أو عارضها فقد خالف الدّين وعارض العقيدة، وأصبح شغل الناس الشاغل كيفيّة الصلاة وأركان والوضوء والتيمّم وغيرها من الأحكام الفقهية، والحال أنّ الفقه بُني أساساً على الاختلاف، ولقد امتنع أئمة المذاهب الكبار عن تعميم آرائهم الفقهية وفرضها على الناس، فأحكام الفروع متغيّرة بتغيّر السياقات والوضعيات وتبدّل الأعراف والثقافات. وعلى هذا الأساس ميّز محي الدّين القليبي بين الأصول والفروع، وما تعلّق بكليهما من معارف.

لا يمكن - حسب القليبي - أن نؤسّس لثقافة تقوم على الاختلاف والتعدّد في إطار نسق دينيّ قلبت فيه الأدوار وتداخلت فيه الأولويات، وانزاحت فيه الحقيقة عن أصولها وجذورها ومقاصدها الكبرى لتكتفي بظاهر الدّين وفروعه.

ولم تكن هيمنة السّاسة أقلّ خطراً من هيمنة علم الفروع ورجاله، فقد أدرك ساسة المسلمين أنّ الصّراع بين أهل الديانة الواحدة يوطّد حكمهم ويرسّخ سلطانهم ويعطيهم مشروعيّة الدّفاع عن الأمّة والحفاظ على وحدتها؛ فالسياسة كانت الموجّه الحقيقيّ للخلافات الإسلاميّة الكبرى كما تجسّدت في واقعة صفين والفتنة الكبرى، كما أخفى الصّراع السنيّ الشيعيّ لعدّة قرون من الزّمن الوجه السياسيّ التوسّعيّ، فأخذ التنافس التركيّ/العثمانيّ - الفارسيّ/الصّفويّ بعداً دينيّاً مذهبياً هيمن فيه خطاب الخلافات والتعصّب الدّينيّ، والأمر ذاته يتكرّر مع المشهد الإسلاميّ المعاصر قبل أحداث ربيع الغضب العربي وبعده، فقد تحوّل الصراع السعوديّ الإيراني إلى صراع مذهبيّ جُنّدت له الأقلام والفضائيات والمساجد، ولعلّ ما حصل بالبحرين بعد انتفاضة

[45]- أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، دار الطليعة، بيروت،1983، ص 78، باب "في مبدأ عبادة الأصنام وكيفية المنصوبات".

شعبه تأسّياً بثورتي تونس ومصر خير مثال على ذلك، فقد تحوّل الصراع السياسيّ إلى صراع مذهبيّ عقدي صاحبه تبادل التهم والتشكيك في الدّين.

كان القليبي واعياً أنّ أصل البلاء يكمن في السّياسة وأهلها، فهم أفسدوا الدّين وجعلوا منه فضاء للتنابز والتقاتل، ويعتمد السّاسة أساساً على تأجيج العواطف وإحياء الذاكرات، لذلك يعتمدون قراءة انتقائية للتاريخ، يركزون فيها على مجموعة دون أخرى، ويرسّخون فيها ثقافة الصراع والحروب، لذلك ارتبط الخلاف دائماً بالماضي وإن أفرزه الحاضر، ويفضي بنا الكلام إلى ضرورة التمييز بين الخلاف والاختلاف والأسباب المؤدّية إلى كليهما.

ب- البحث في أسباب الخلاف ودواعي الاختلاف

بناء على ما سبق، نلاحظ أنّ الأسباب المؤدّية إلى الخلاف هي ذاتها المعطّلة لكلّ اختلاف، وحصرها محي الدّين القليبي في مجموعة من النقاط تتعلّق بهيمنة البعد السياسيّ وسيادة التعصّب والتمذهب وتدخّل العامّة في توجيه الدّين، ولم يكن التعصّب في بداية الأمر يتّبع "عقائد خاصة أو نظريات لكل فريق في فقه المعاملات والعبادات، وإنّما حدث ذلك عندما تحمّس كلّ فريق لمذهبه السّياسي، وأراد أن يكسوه صبغة دينية أدّت إلى التناحر والحروب بين الطوائف الإسلامية"[46]، ويتبّن لنا من خلال هذا الشاهد النصّيّ أنّ الأسباب المؤدية إلى الخلاف والمعطّلة لكلّ اختلاف متداخلة يؤدّي بعضها إلى بعض؛ فالتعصّب للعقائد ارتبط بالفقه والتمذهب وارتبط كلاهما بالسّياسة وتوظيفها الدّين، وتدخّل العامّة في شؤون الدّين فتحدّثوا في الحلال والحرام والمحمود والمذموم، وسايرهم في ذلك الفقهاء ورجال السياسة حفاظاً على السلطان، فيتفاقم الوضع ويشتدّ التعصّب والتناحر والتباغض، "وأكثر ما ينشأ ذلك عن تدخل العامة والدهماء أو من هم في منزلتهم فيما هو من خصائص الخاصة والعلماء، إذ بذلك تنقلب الأوضاع وينتكس السير ولا منجاة من ذلك إلا بإرجاع الأمور إلى أهلها، والضرب على أيدي المترامين عليها".[47]

وقد تتداخل الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية لتفرز بُعداً إيديولوجياً صارماً يرى في كلّ اختلاف خلافاً وخطراً على الإسلام والمسلمين، وفي هذا السياق اعتبر دعاةُ الحركة الوهابية، منذ نشوئها، التصوّفَ ضرباً من البدع ومرضاً أضرّ بالأمّة ودينها، والحال أنّ الفكر الصوفي جزء من الثقافة الإسلامية يستقطب عدداً لا يستهان به من المسلمين في المغرب العربي وإفريقيا ومصر وبلاد الشام وإيران وبقية الدّول الآسيويّة،

[46]- محي الدين القليبي، تاريخ المذاهب الإسلامية وشمال أفريقيا، **رسالة الإسلام**، السنة 4، عدد 14/2، أبريل 1952، رجب 1371هـ، الطبعة الثانية، نشرها كلّ من مجمع البحوث الإسلامية بالآستانة الرضوية المقدسة، ومجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، 1999، ص 198

[47]- محي الدين القلبي، **تاريخ المذاهب الإسلامية وشمال أفريقيا**، ص ص 198-199

فهل من المبرّر أن نرفض الاختلاف ونقصي أهل التصوّف بتعلّة أنّ الدين بيّن وواضح المعالم؟ لقد تنبّه محي الدّين القليبيّ إلى خطورة هذه المسألة التي تتواصل تداعياتها إلى اليوم، فتحدّث عن التصوّف بأنّه "مرابطة"[48] وجهاد وعمل، والمرابطون عنده هم "متطوعون بأموالهم وأنفسهم، لا يأخذون شيئاً من الحكومة ولا من الناس، ولكنهم يعتمدون في حياتهم البسيطة على كدّهم وعملهم الخاص"[49]، ونجح الاستعمار في تشويه صورة التصوّف وشجّع الطرقية واستغلّ أصحاب الطرق في تمرير سياسته الاستعمارية[50]، وانتقد السلفيّون التصوّف من خلال صورته الطرقية السّائدة، فكان رفضهم الاختلاف قائماً على صور واهية ومواقف سياسية، "ومن هنا نشأت الخصومة بين السلفيين والطرقيين، فهي خصومة سياسة أكثر منها دينية".[51]

4- من الخلاف إلى ثقافة الاختلاف: استشرافات

لو أردنا أن نرصد مشروع محي الدين القليبيّ التقريبيّ لاختزلناه في شعار "من الخلاف إلى الاختلاف"؛ فالأصل في الثقافة الإسلامية قيامها على الاختلاف والتعدّد، وما الخوف من الخلاف إلاّ مرض أصاب الحضارة الإسلاميّة زمن تراجعها وهيمنة الاتّباع والتقليد عليها.

ويمكن اختزال مشروع القليبي في بناء ثقافة الاختلاف في ثلاثة مداخل أساسيّة:

أ- الاختلاف يتطلّب قبول المخالف والاعتراف به

لعلّ أهمّ خطوة في مجال الاعتراف بالآخر والقبول به ندّاً وشريكاً في الحضارة والحياة تجاوز ثقافة الألقاب والاكتفاء بالأسماء[52]؛ فالقرآن ألحّ على تجنّب التنابز بالألقاب، والثقافة الإسلامية ثقافة ألقاب بامتياز، حتّى أنّنا لا نعرف بعض الأفراد والمجموعات إلاّ من خلال ألقابها من قبيل: الجاحظ والمتنبّي والمعتزلة والخوارج والرافضة والنواصب (...)، ونتحسس من خلال قراءة نصوص القليبيّ أنّ الرجل يحاول قدر المستطاع تجاوز ثقافة الألقاب ليرسي ثقافة بديلة تقوم على الاختلاف، واعتبر القليبي "المذهب الإباضي من مذاهب المحكّمة"[53]، ويعتمد في عرضه اسمين تقبل بهما الإباضية ويتجنّب استعمال اللقب المهيمن في الثقافة

---

[48]- محي الدين القليبي، الرباط في سبيل الله، رسالة الإسلام، السنة 4، عدد3/15، يوليو 1952، شوال 1371 هـ، ص 306

[49]- محي الدين القليبي، الرباط في سبيل الله، ص 306

[50]- محي الدين القليبي، المصدر نفسه، ص 306

[51]- محي الدين القليبي، المصدر نفسه، ص 313

[52]- الاسم مقترن بالإرادة والاختيار واللقب مقترن بالقصر والجبر، فكلّ فرد أو مجموعة تختار لها اسماً يعكس هويتها، ويفضّل خصومها التعامل معه من خلال مسمّى آخر يكون هجيناً في أغلب الأحيان يعرف باللقب، جاء في لسان اللسان: "اللقب: النبز، اسم غير مسمّى به"، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان اللسان: تهذيب لسان العرب، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1993، ج2، 513

[53]- محي الدين القليبي، المغرب الإسلامي،رسالة الإسلام، السنة 1، عدد1، يناير 1949، ربيع الأوّل 1368، ص 83

الإسلامية ونقصد به الخوارج، فالإباضية يرفضون انتسابهم للخوارج، وما الخروج في الحقيقة إلاّ لقب اعتمده أعداء الجماعة لبيان ضلالهم وخروجهم عن الدّين.

إنّ الاعتراف بالآخر يعني فيما يعني القبول به كما هو في الأصل دون تعديل أو تزويق، فكلّ مجموعة دينيّة أو مذهبية أو ثقافية لا بدّ أن تتعامل مع الآخر من خلال اسمه الذي اختاره لنفسه وصورته التي وجدت في التاريخ، وكم من صور مشوّهة عطّلت كلّ تواصل! وكم من لقب سائد حال دون التعارف والحوار! ولذلك يجتهد القليبي كلّما سنحت الفرصة له في بيان أصالة الاسم وأبعاده وإظهار الصورة الحقيقية دون تشويه أو تزوير، وهذا ما نلحظه بجلاء عند حديثه عن المتصوّفة المرابطين.[54]

ب- تونس أنموذج الاختلاف المذهبي البنّاء والتعايش السلمي بين المسلمين

ركّزت كتب التاريخ الرسميّة على نماذج سياسيّة واجتماعيّة تحوّل فيها الاختلاف إلى صراع وقتال، وكأنّ التنوّع الدّينيّ والمذهبيّ والإثنيّ لا يؤدّي إلاّ إلى الخلاف القاتل، وأكّد القليبي أنّ التجربة التونسية-المغاربيّة تظهر العكس، وتؤكّد أنّ الاختلاف مصدر إبداع وتواصل، وآية ذلك أنّ "الاختلاف المذهبيّ الذي لعب في المغرب الإسلامي دوراً خطيراً لم يؤثّر فيه كوطن بكلّ معاني الوحدة على اتساع رقعته"[55]، ونلاحظ أنّ القليبي يقترح "المغرب العربي" مثالاً للتعايش الديني والمذهبيّ والإثنيّ القائم على الاختلاف والتعدّد والاحترام المتبادل؛ فالاختلاف لم يمسّ بوحدة البلاد بل زاد من تماسكها وإصرار أهلها على العمل والمثابرة والتعاون، وحتّى "الحدود التي أقيمت منذ السيطرة العثمانية عليه بين أجزائه (ليبيا، وتونس، والجزائر، ومراكش) لم تحل دون تأثر كلّ قطر من هذه الأقطار بما يحدث في القطر الآخر"[56]. وهذا ما نلمسه من بطولات النضال والمقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي، فلم يكن الاختلاف عائقاً يحول دون التوحّد والتعاون، بل كان مصدر قوّة للمجاهدين، إذ عملوا جميعهم على "إحباط محاولات الإبادة والإدماج في كلّ من الجزائر وليبيا المستعمرتين استعماراً مباشراً، وبهذا كلّه يتضح السبب الرئيس في فناء معظم النزعات والمذاهب التي كان لها دعاة وأنصار في المغرب العربي والتي لم يبق منها إلاّ المذهبان الحنفي والمالكي اللذان يسودان الأغلبية الساحقة من سكانه، ثمّ المذهب الإباضي من مذاهب المحكّمة الذي لا تزال من أنصاره بقايا تذكر بدولة بني رستم الإباضية

[54]- انظر: محيي الدين القليبي، **الرباط في سبيل الله**، مصدر سابق، ص 306
[55]- محي الدين القليبي، المغرب الإسلامي، **رسالة الإسلام**، السنة 1، عدد1، يناير 1949، ربيع الأوّل 1368، ص 82
[56]- محيي الدين القليبي، المغرب الإسلامي، ص 83

المذهب"[57]. وأكّد القليبي "أنّ هذه المذاهب على اختلافها استطاعت أن تحيا بعضها مع بعض في وئام، كما سنبينه في الفصل الآتي ـ إن شاء الله ـ".[58]

ونفهم من كلام القليبي إصراره على جلب الأنظار باتجاه تجارب تونسية مغاربية أهملها المهتمّون والمختصّون؛ فالشرق يكاد يستأثر بالدرس والاهتمام، والحال أنّ المغرب العربيّ يحتوي من التجارب ما يمكن الاستفادة منه في بناء نماذج اختلاف تقوم على العيش المشترك والتعاون والإبداع الحضاريّ الجمعيّ. ولا يمكن بناء هذه النماذج وتحقيق هذا المنشود إلاّ بإرساء ثقافة اختلاف محورها التعليم.

ج- التربية على الاختلاف والمجتمع الإسلامي المنشود

أَوْلَى القليبي أهمّية كبرى للتربية والتعليم في بناء منشوده الثقافيّ، إذ لا يمكن تجاوز ثقافة الخلاف والإقصاء والتعصّب في إطار تعليم متخلّف وأميّة متجذّرة، فلا بدّ من محو الأميّة وتطوير التعليم وتدريب المتعلّمين على الاختلاف والتعدّد، فقد أفسد بعض العلماء الانتهازيين العلم والتعليم، وتركوا لنا إرثاً ثقافياً مثقلاً بالعداوة والبغضاء والكراهية، ولم يكن ذلك إلا تقرّباً من السلطان وخدمة لنظريات الحكم، وكانوا يخدمون في ركابها، ويتقرّبون إليها بتدعيم مذهبها الذي قامت عليه، وابتكار صور لها من نصوص الدين، طمعاً في مالها وجاهها، وفي الوقت نفسه يتقربون إلى العامة بمجاراتهم في إشاعة الفتنة ومقالة السوء ضدّ مخالفيهم"[59]، وعلى هذا الأساس وصلت لنا الحقائق مشوّهة، وبنيت الصور بطرق مريبة تفعّل الصدام وتدفع إلى الخوف الدّائم من الآخر المخالف.

إنّ ثقافة الاختلاف تندرج عند القليبي ضمن مشروع إصلاحيّ يؤمن بأسبقية الإصلاح الثقافي التربوي على الإصلاح السياسي، وهذا الخطّ السياسيّ هيمن على المدرسة التونسية وأعلامها من أواخر القرن التاسع عشر، فكان القليبي تواصلاً لها، ولا مبرّر للخلاف والصدام في إطار ثقافة علمية تقوم على الصراحة وجدّية الطرح، ومن هنا دعا القليبي إلى ما أسماه بالخلاف العلميّ بمعنى "أن يكون الخلاف في الرأي خلافاً علمياً طاهراً نقياً لا يدعو إلى الخصومة، ولا يورث الحقد والبغضاء بين المتخالفين".[60]

ونفهم من كلام القليبي أنّ الاختلاف ليس مجرّد سلوك عرضيّ أو كلام يقال في المنابر، بل هو ثقافة وجزء من بناء الشخصيّة، فلا بدّ أن يتدرّب الإنسان منذ طفولته على الاختلاف والقبول بالآخر، وأن يتعلّم آداب

[57]- محيي الدين القليبي، المغرب الإسلامي، ص 83
[58]- محي الدين القليبي، المغرب الإسلامي، ص 83
[59]- محي الدين القليبي، أدب الدعوة إلى الحق، رسالة الإسلام، السنة 5، عدد1/ 17، يناير 1953، ربيع الأول 1372هـ، ص 98
[60]- محي الدين القليبي، أدب الدعوة إلى الحق، ص ص 89-90

الاختلاف وأخلاقيات التعدّد، ولذلك ركّز القليبي على الأجيال الناشئة في عصره، فهم المعنيون الحقيقيّون بهذه الثقافة، وبناء على ذلك "يجب أن نعمل جاهدين على توحيد القلوب في الأجيال الحاضرة بالدعاية بكل وسائلها، وفي الأجيال المقبلة بالتعليم، وعلى الخصوص في المعاهد الدينية الإسلامية، وهنا تتجلى مهمّة القائمين عليها في هذا الأمر وما يجب عليهم من انتقاء الكتب وتطهيرها من لوثة الخلاف المفرّق، والجدل والاتهامات التي تورث الأحقاد بين أهل الدين الواحد الموحد، وأن تلهم الذين وكل اليهم أمر تربية هذا الجيل أن ينشئوه على التسامح وسعة الصدر واحترام الآراء، وتقدير العقائد".[61]

ليس من اليسير الحديث عن ثقافة الاختلاف دون القيام بإصلاح ثوريّ في التعليم، تتحرّر فيه المواد التعليميّة من الذّاكرة الخلافية وهيمنة الكتب السِجاليّة الصدامية التي توجّه معالم الثقافة الإسلامية وجهة ارتدادية تقطع كلّ وصل.

نخلص في ختام هذا العمل إلى القول: إنّ محي الدين القليبي استطاع أن يثير القضايا الأساسية المتعلّقة بالاختلاف، بما هو منشود اجتهد عدد كبير من العلماء والمثقفين على تحقيقه انتصاراً للحرية والعدالة والإنسان، ويتّسم طرحه بالجدية والجرأة والوضوح، فانتقد الخلاف الفقهي وما فيه من تعصّب وتقليد أعمى، وفضح الساسة ودورهم في تأجيج نار الخلاف والصراع بين المسلمين أنفسهم، وكان من الممكن تطوير ما جاء به القليبيّ من أفكار وأطروحات، ولكنّ إهماله من قبل الباحثين حال دون التعرّف على نصوصه ومنشوده التقريبيّ، وما هذا العمل إلاّ محاولة قد تتبعها محاولات أخرى تعمل على تسليط الضوء على إسهامات تونسيّة مغاربية، من المفيد التعرّف إليها والتعريف بها.

[61]- محي الدين القليبي، أدب الدعوة إلى الحق، ص 90

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com